الرقم الدولي المعياري للمؤتمر ـــــ (معتمد ومصنف دوليًا) ـــــ ISBN 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

السرد والاستدلال

(قصة ذكاء أبي جعفر المنصور نموذجاً)

إعداد

عائشة سالم محمد باكوبن

أستاذ الأدب والنقد المساعد بقسم اللغة العربية

كلية الآداب – جامعة طيبة

1444هـ

الملخص

يحظى الاستدلال – باعتباره منهجًا علمياً – باهتمام كبير من قبل الباحثين والدارسين في كافة المجالات العلمية الأكاديمية. وفي ميدان الأدب؛ يحضر الاستدلال باعتباره منهجًا يحكّم الآراء النقدية ويفحصها؛ ليميز الجيد منها القائم على الدليل، من الآراء الأخرى الذوقية أو التحكمية أو المقلِّدة. ويأتي هذا البحث ليجيب عن سؤال معرفي يسلط الضوء على الاستدلال باعتباره وظيفة حجاجية مكنوزة داخل النصوص السردية في الأدب العربي القديم، فهل كان السرد العربي القديم يسير جنباً إلى جنب وطرق التفكير العلمي التي كانت سائدة في العصور الزاهرة؟ أم كان حكرًا على العلوم الطبيعية وأهلها الذين أثمرت عقولهم نظريات نوعية غيرت مجرى التاريخ، ووهبت الإنسان رفاهية مدهشة ما زال يتفيأ ظلالها وينعم بخيراتها حتى اليوم؟

ويحاول البحث توظيف نظرية الاستدلال وطريقة التفكير العلمي مع بعض أدوات الحجاج في دراسة أحد النصوص السردية القديمة، إذ تتمحور الحكاية حول شخصية تاريخية اشتهرت بالذكاء، وتتحدد في إبراز جانب مهم من جوانب تلك الشخصية وهو ما يرتبط بالحالة العقلية لها، حيث تمتاز بقدر عالٍ من الدهاء والذكاء وسرعة البديهة والفطانة وسلامة التفكير.

وتتمظهر طريقة التفكير العلمي المنهجي الحديث بشكلٍ جلي في طريقة تعاطي الشخصية المحورية مع المشكلة التي واجهت أحد رعاياها من خلال الطريقة العلمية المعتمدة في العلوم التجريبية بدءاً من التساؤلات ثم افتراض الفرضيات واختبار صحتها ثم التوصل بعد ذلك إلى النتيجة المحكمة.

الكلمات المفتاحية: السرد – الحجاج – الاستدلال – أبو جعفر المنصور

البريد الالكتروني: a.s.m.bakoban@gmail.com

المقدمـــة

الحمد لله المتصف سبحانه بالعزة والعظمة والجلال، القيوم الحق الأزلي الدائم بغير زوال، المتفضل على عباده بجلائل النعم الكبير المتعال، والصلاة والسلام على عبده ورسوله كريم الخصال، الطاهر المطهر الموافق فعله لما سنَّ وقال. وبعد

فإن الأخبار أو النصوص السردية في التراث العربي القديم بحاجة إلى مناهج نقدية جديدة لإعادة قراءتها وفقًا للمنظور الحجاجي بمفهومه الواسع أو الاستدلالي بمفهومي العقلي المحدّد؛ لكونها ذات حمولة غزيرة من المعاني المضمرة التي تدعم هذا السياق، كما أن اختزال قراءتها وفقاً للمنظور الجمالي الأسلوبي قد يبخسها حقها ويخرج من دراستها بنتائج تسمها بالضعف والتواضع في الإمكانات التعبيرية، وبمعنى آخر؛ إن النصوص السردية والأخبار موسومة بالحكمة التي هي نتيجة للعقل ومحصلة له، وبالتالي فإن المناهج الفنية القائمة على الخيال ولغة المجاز والنزعة الوجدانية (العاطفية) لن تواكب إمكانات تلك النصوص السردية وأحداثها وطاقاتها الحجاجية أو الاستدلالية الراقية.

لذا فإن هذه الورقة العلمية تحاول إبراز أقوى جوانب الخطاب الحجاجي الكامن في الاستدلال، وبالتالي فإن قراءة القصة محل الدراسة ستسلط الضوء على الحجاج العقلي باعتباره بؤرة النص السردي بينما الحجاج بالعواطف والحجاج بمصداقية الأخلاق يأتيان تبعًا له.

ومن جهة أخرى؛ تعدّ العصور الوسطى عصورًا مشرقة بالعلم والمعرفة، فقد أزهرت حضارة العرب والإسلام نظريات علمية جادة في تلك الحقبة التي تزامنت مع دولة بني العباس، وكان للخلفاء في ذلك الزمن دور حيوي في نشر العلم وتشجيع العلماء وإنشاء المكتبات ومراكز العلم وحلقاته مما جعل حركة العلم في أوج قوتها على جميع المستويات، وقد انعكست ظلال ذلك على الأدب عامة، وعلى الأخبار والنصوص السردية بشكل أخص.

ويمكننا القول بأن النصوص السردية في التراث الأدبي القديم تزخر بقيم العلم ومنطق الحكمة وأدب العلماء، فهي مجال خصب للدراسات الأدبية والبلاغية وفقًا لمفاهيم ومبادئ الخطاب الحجاجي.

وقد اختارت هذه الورقة خبرًا يحكي ذكاء وفطنة الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، وقد حمل في ثناياه معرفة كلية ناضجة مستوفية الأركان، تتمثل في استيعابه لطرق التفكير العلمي المعتمدة عند العلماء، والتي أثبتت نجاعتها في العلوم التجريبية (الطبيعية) حتى اليوم، وبالتالي؛ فإن هذا الورقة تحاول الإجابة على الأسئلة التالية:

هل كان السرد العربي القديم يسير جنباً إلى جنب وطرق التفكير العلمي التي كانت سائدة في تلك العصور الزاهرة؟ أم كان حكرًا على العلوم الطبيعية وأهلها الذين أثمرت عقولهم نظريات نوعية غيرت مجرى التاريخ، ووهبت الإنسان رفاهية مدهشة ما زال يتفيأ ظلالها وينعم بخيراتها حتى اليوم؟

وهل قدم هذا النص السردي/ الخبر معرفة كلية مضمرة في سياقه؟ وإلى أي مدى نجح في تقديمها للمتلقي والتأثير عليه؟

وقد حاولت هذه الورقة توظيف نظرية الاستدلال وطريقة التفكير العلمي في دراسة النص السردي – محل الدراسة – بالإضافة إلى استثمار بعض مفاهيم ومبادئ الخطاب الحجاجي الجديدة[1]، التي دعا إليها الدكتور محمد مشبال في مشروعه البلاغي المبثوث ضمن مؤلفاته[2].

هذا، وأرجو من الله أن تكون هذه الورقة قد استطاعت أن تبرز إمكانات النص السردي القديم الحجاجية في أظهر صوره (الاستدلال العقلي)، بالإضافة إلى الاستراتيجيات الحجاجية الأخرى المساندة، الأمر الذي يدعو الدراسين إلى استكناه هذه الإمكانات الراقية في بطون كتب الأدب القديمة الزاخرة بالأخبار.

القصـــة

(قصة ذكاء الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور)[3]

جلس الخليفة أبو جعفر المنصور في إحدى قباب بغداد، فرأى رجلا ملهوفا يجول في الطرقات، فأرسل إليه من أتاه به، فلما سأله عن حاله، أخبره أنه خرج في تجارة فكسب منها مالاً كثيرًا، فدفعه إلى امرأته واستأمنها عليه، ثم طلبه منها فيما بعد، فذكرت المرأة أنه سُرق من البيت، ولم يرَ نقبًا ولا تسلقًا.

فقال المنصور: منذ كم تزوجتها؟ قال: منذ سنة. قال المنصور: تزوجتها بكراً أم ثيبا؟ قال: ثيباً

قال المنصور: أفَلَها ولد من غيرك؟ قال: لا. قال المنصور: فشابة هي أم مُسنّة؟ قال: شابة

فدعا المنصور بقارورة طِيب، كان يُعمل له، حادّ الرائحة، غريب النوع، لا يوجد له مثيل، فدفعها إلى الرجل، وقال له: تطيّب من هذا الطيب فإنه يُذْهِبُ همَّك! فأخذها وانقلب إلى أهله.

فقال المنصور لجماعة من نقبائه: اقعدوا على أبواب المدينة، فمن مرّ بكم وشممتم منه روائح هذا الطيب فأتوني به.

ومضى الرجل بالطِّيب إلى بيته، فدفعه إلى المرأة، وقال لها: هذا من طيب أمير المؤمنين

فلما شمّته أعجبها إلى الغاية، فبعثت ببعضه إلى رجل كانت تحبه، وهو الذي دفعت المال إليه، فقالت له: تطيّب بهذا الطيب، فتطيب به ومرّ مجتازًا ببعض الأبواب، ففاحت منه روائح الطيب فأخذ وأتي به إلى المنصور. فقال له: من أين استفدت هذا الطِّيب؟، فإن رائحته غريبة مُعجِبة؟

قال: اشتريته قال: من أين اشتريته؟

فتلجلج الرجل واختلط كلامه، فدعا المنصور والي شرطته وقال له: خذ هذا الرجل إليك، فإن أحضر كذا وكذا من الدنانير فخذ منه، وإلا فاضربه ألف سوط. فما هو إلا أن جرّد وهدد حتى أذعن برد الدنانير وأحضرها كهيئتها. ثم أعلم المنصور بذلك، فدعا صاحب الدنانير، وقال له: أرأيت إن رددتُ إليك الدنانير، أتحكّمني في امرأتك؟

قال: نعم يا أمير المؤمنين

قال: ها هي دنانيرك، وقد طلقت امرأتُك. ثم أخبره بخبرها.

الدراســـة

إن أظهر ما تتسم به هذه القصة بعدها **الحجاجي العقلي الاستدلالي**، وهو المتجه إلى فحوى الخطاب وما فيه من حمولة استدلالية منطقية مقنعة، والذي سماه أرسطو "اللوجوس"[4]، كما أن هذه القصة تعدّ من قبيل المثال التاريخي الذي يستمد قوته الإقناعية لكونه واقعة تاريخية حدثت في الماضي، وللواقعة قيمة حجاجية متفق عليها، كما أنها واقعة سابقة وهذه الأسبقية سمة تجعله مفضّلاً عند السامع، وقيمة الاستباق تجعل منه حدثًا قابلاً للتكرار، ومبدأ التكرار وإمكانية الحدوث يمنحه قوة إقناعية إضافية.[5]

ويقدم هذا الخبر معرفة كلية مضمرة تتمثل في العملية الاستدلالية التي انتهجها الخليفة أبو جعفر المنصور للكشف عن سر اختفاء مال الرجل بعد ادّعاء زوجته بأنه قد سرق، بينما لم يجد في بيته أثرًا من الآثار التخريبية التي يخلفها النهّابون والسارقين خلفهم عادةً.

وللاستدلال تعريفات كثيرة كـ " انتقالُ الذّهنِ من أمرٍ معلومٍ إلى أمرٍ مجهول"[6]. أو: " استنتاج قضية من قضية أو عدة قضايا أخرى"[7] أو أنه "برهنة ذات نهج استنتاجي الغاية منها إثبات حقيقة قضية ما، انطلاقًا من مقدمات تعتبر يقينية"[8]

والاستدلال عملية عقلية فطرية مبنية على التأمل والنظر، الغاية منها التوصّل إلى صحة المعرفة بقضية ما أو بطلانها فينتقل العقل بما لديه من مادة معلومة ليولّد منها علمًا بقضية مجهولة وبحسب طبيعة تلك المعلومات صحةً وضعفًا تتولّد حالة القناعة بصحة ذلك المجهول من بطلانه .

وتتمحور الحكاية حول شخصية تاريخية وهي شخصية الخليفة العباسي (أبي جعفر المنصور)، وتتحدد في إبراز جانب مهم من جوانب تلك الشخصية وهو ما يرتبط بالحالة العقلية لها، حيث تمتاز بقدر عالٍ من الدهاء والذكاء وسرعة البديهة والفطانة وسلامة التفكير.

وتتمظهر طريقة التفكير العلمي المنهجي الحديث بشكلٍ جلي في طريقة تعاطي الشخصية المحورية مع المشكلة التي واجهت أحد رعاياها، وذلك من خلال الخطوات التالية:

١. ملاحظات وتساؤلات

تتزامن التساؤلات مع مرحلة الملاحظة التي تعدّ أولى مراحل التفكير العلمي السليم، وتعني التأمل الدقيق في الجزئيات للتعرف على ظواهرها وصفاتها وخصائصها. ويجب أن تتضمن ملاحظة الجيدة ثلاثة عناصر أولها تركيز الانتباه إلى ناحية أو صفة معينة في موضوع البحث، وثانيها إدراك معنى الأثر الملاحظ في ضوء الخبرة العلمية، وثالثها، استنتاج ما يمكن استنتاجه من أحكام بعد إدراك العلاقات المختلفة بين الشيء الملاحظ وغيره من الأشياء[9].

فقد **لاحظ** الخليفة أو جعفر المنصور (الرجل المهموم) من بين رعاياه الكثر، ثم استدعاه **وسأله** عن سبب همه، فأخبره بأن كسب مالاً استأمنه عند زوجته فلما عاد أخبرته بأن سرق، ولكنه لم يجد أثراً ولا علامة على ذلك، فالجدران سليمة وما عليها أثر اقتحام للبيت أو سرقة. ومن هنا ركزت الشخصية المحورية انتباهها إلى ناحية أو صفة معينة ووضعتها موضع الفحص والاختبار، بينما الرجل الملهوف مسلوب المال الذي نطق بهذا الكلام لم يستطع أن يواجه نفسه بهذا الإشكال لما يترتب عليه من احتمالات لا يسعه تصديقها أو تحملها، وبالتالي وجهت الشخصية المحورية أسئلة تراتبية ذات إحالات نفسية واجتماعية معيّنة وقد توصل من خلال إجابات الرجل إلى استبعاد العديد من الاحتمالات والافتراضات وحصرها في فرضية واحدة هي الأقرب للصواب، **أدرك من خلالها الأثر الملاحظ في ضوء خبرته**، وهي احتمالية أن تكون المرأة خائنة وقد دفعت بمال زوجها للرجل الذي تهواه.

ويتضح مبدأ التراتبية في استدلال الخليفة من خلال تساؤلاته وما تحيل أليه إجابات الرجل من إحالات نفسية واجتماعية معيّنة:

السؤال الأول: منذ كم تزوجتها؟ الإجابة: منذ سنة **(المدة)**

السؤال الثاني: بكراً أو ثيبا؟ الإجابة: ثيباً **(الحال)**

السؤال الثالث: أفَلَها ولد من غيرك؟ الإجابة: لا **(الارتباط)**

السؤال الرابع: فشابة هي أم مُسنّة؟ الإجابة: بل شابة (**العمر**)

وقد تضافرت هذه العناصر الأربعة الناتجة عن الملاحظة وإثارة العديد من التساؤلات مع وجود إجاباتها (مدة الزواج، وحال المرأة، وعدم وجود الولد، وعمرها) إلى ارتفاع مؤشر صدق الفرضية (خيانة الزوجة)، وبالتالي فإن الخطوة العلمية المنهجية القادمة تتكئ على اختبار تلك الفرضية ومدى صحتها لتنتقل من حيز الفرض الظني إلى التحقق واليقين.

٢. اعتماد الفرضية

استقرت الشخصية المحورية على فرضية محددة تتعلق بخيانة الزوجة بناءً على إثارة العديد من الأسئلة، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الفرض العلمي الصحيح، فلا يصلح أي فرض يطرحه التخيّل لأن يكون فرضًا علميًا لأن الاحتمالات الذهنية لا نهاية لها، ولكن الخليفة أبا جعفر المنصور، طرح هذه الفرضية بعد إثارة العديد من التساؤلات التي تضيق دائرة الاتهام أكثر حول الزوجة، كما أنه افترضها على سبيل الظن ولم يحكم بها مباشرة، إذ أن من ضوابط الفرض العلمي أن يطرح على سبيل الاحتمال الظني مسبوقًا بملاحظة أو تجربة، كما ينبغي أن يكون الفرض المطروح من الأمور القابلة لأن يبرهن عليها[10] وهذا ما انطبق تمامًا على فرضية الخليفة في الخبر المسرود.

٣. اختبار صحة الفرضية (التجريب)

ولأن الفرض العلمي تفسير مؤقت للظاهرة التي هي موضوع البحث، ويظل طرحه احتماليًا حتى تترجح صحته بالدليل[11] قامت الشخصية المحورية بتدبير تجربة عملية طويلة المدى، محكمة الإعداد للتحقق من فرضية خيانة الزوجة ودفعها المال إلى محبوبها.

وقد انتهج الخليفة المنهج غير المباشر أو المعروف بالطريقة القياسية، أي طريقة القياس المنطقي القائم على اللزوم، فبعد الاستنباط الافتراضي للعلاقة السببية للظاهرة من مجموعة عناصرها (خيانة الزوجة بناءً على إثارة العديد من الأسئلة التي تدعم إجاباتها جميعها هذا الافتراض، للعلاقة السببية الظاهرة بين حال المرأة واحتمال خيانتها) يقوم الباحث بالتأكد من صحة الفرض أو رجحانه بدراسة ما يتعلق به من أمور تلزم عنه، أو يلزم هو عنها أو يدخل في ضمنها أو ينطبق عليها.[12]

اختار الخليفة (الطيب الفريد) ليكون دليلاً على كشف الخيانة، فالطيب وعلاقته بالعاشقين وطيدة من جهة، وتفرّده كفيل بكشف هوية الخائن من جهة أخرى. ويلاحظ أن الخليفة لم يوجه دليله لكشف المرأة بشكل مباشر، بل وجهه للرجل الخائن من خلالها – وهو طريق غير مباشر – يلزم عنه إهداؤها هذا الطيب لمحبوبها كما سبق أن

وهبته مال زوجها، وهذا أدعى لصيانة عرضها وحفظ سمعتها، ومن المعروف حساسية الأمر فيما يتعلق بخيانة المرأة مقارنة بالرجل في عرف المسلمين والعرب خاصة. كما أن الخليفة أهداه للزوج (مسلوب المال) على هيئة تطييب لخاطره وتسكين لما يشعر به من خيبة وألم، مستنتجًا سذاجة الرجل وبأنه سيدفعه لزوجته متباهياً بإهداء أمير المؤمنين له وذلك بناءً على عدم إبداء هذا الرجل المسلوب المال أي شك في زوجه بالرغم من إجاباته على أسئلة الخليفة المثيرة، وبالرغم من ملاحظته لعدم وجود أثر للسرقة رغم تبرير زوجته بالسرقة.

فهذه العلامات المتعلقة بسمات الرجل المسلوب المال تنبئ بسذاجته وضعفه وقلة حيلته، ظهرت في النص للمتلقي كما ظهرت للخليفة من خلال الخبر وطريقة سرده.

وبعد وقوع المحبوب في قبضة الشرطة بناء على قرينة (الطيب) تم استدراجه لتسليم المال دون الكشف عن علاقته بالمرأة، وفي هذا إشارة إلى أخلاقيات البحث العلمي واحترام المواثيق الإنسانية.

٤. تعميم النتيجة والتوصية بناء عليها.

إن مجرد وقوع المحبوب في قبضة الشرطة وهو متلبس برائحة الطيب لا يعدّ دليلاً قاطعًا على خيانته، إذ أن هناك احتمالات أخرى يمكن أن يكون عليها هذا الرجل، كأن يكون أحد إخوة الرجل (مسلوب المال) أو أعز أصدقائه أو من قرابة زوجه الذين تكن لهم المودة ممن يحتمل أن يهدى إليهم (طيب الخليفة الفريد)، لذا تم استدراج الرجل المتلبس برائحة الطيب من خلال أسلوب حواري أسلمه إلى الإقرار والاعتراف الذي يعدّ أقوى الأدلة على الإطلاق.

"قال له المنصور: من أين حصلت على هذا الطِّيب؟، فإن رائحته غريبة مُعجِبة؟ قال: اشتريته. قال: من أين اشتريته؟ **فتلجلج** الرجل **واختلط كلامه**، فدعا المنصور والي شرطته وقال له: خذ هذا الرجل إليك، فإن أحضر كذا وكذا من الدنانير فخلِّه يذهب حيث شاء، وإن امتنع فاضربه ألف سوط. فخرج به صاحب الشرطة، وجرده، ودعا بالسياط ليضربه، فأذعن الرجل، وردّ الدنانير".

وبالتالي، اطمأنت الشخصية المحورية إلى صدق فرضيتها بعد ظهور العديد من القرائن (الطيب، تلجلج المحبوب، استجابته للترهيب) وبعد تكشّف الحقائق (اعترافه وإقراره ودفعه الدنانير المسروقة على هيئتها)، فاعتمدت النتيجة باستدعاء صاحب المال المسروق، واشترطت عليه قبول تحكيمه في شأن امرأته مقابل دفع عين ماله الذي سُرِق. فأجابه الرجل إلى ذلك فردّ عليه الدنانير وطلق زوجته منه وأخبره بخبرها.

ويتجلى بوضوح في هذا الخبر كيف أن السرد استطاع أن يبني معرفة كلية ويقدمها للمتلقي بطريقة سلسلة وتراتبية اكتملت فيها النظرية الاستدلالية بجميع أركانها وعناصرها ودقائقها، فالخبر بهذا يعد وحدة مستقلة لبناء معرفة عقلية حقق من خلالها أهم مقاصد النص السردي[13].

كما يتجلى **الحجاج بأخلاق الشخصيات/ الاحتكام للسلطة – الأيتوس**[14] في النص السردي من خلال دور السارد وطريقة سرد الخبر، إذ أن حركة السرد تسهم في عملية التأثير على المتلقي من خلال **سلطة الخليفة** وبسط نفوذه على البلاد في ثنائية الخير المطلق والشر النسبي في فضاء الخبر، ومؤشرات الخير المطلق في النص هي:

- انتباه الخليفة للرجل المهموم أثناء نزهته، الأمر الذي يشير إلى أن رعيته أولى أولوياته حتى على حساب راحته وأوقات فراغه.
- التجارة في النص السردي، وكون الرجل يزاولها وكسب منها مالاً وفيرًا، يحيل إلى معنى مضمر، وهو ازدهار الأوضاع الاقتصادية في عصر الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور.
- حكمة الخليفة وتطييب خاطر الرجل بإهدائه الطيب الفريد، مع كونه (قرينة) تستدعي الخائن فيما بعد (ضرب عصفورين بحجر واحد!).
- إنسانية الخليفة وحبكه للدليل لاجتلاب الرجل الخائن لا المرأة الخائنة، يشير إلى رقي مكانة المرأة في الأعراف والتقاليد العربية وامتثال الخليفة لذلك ومراعاته لها بدقة واحتراف.
- عدم كشف سر المرأة لزوجها إلا بعد رد عين ماله المسروق، وتطليقها منه بعد أخذ الشرط عليه، يحيل إلى قيم أخلاقية رفيعة يتمتع بها الخليفة العباسي وهي منبثقة عن منظومة أخلاقية رفيعة الشأن في نفوس العرب جميعًا.

هذا الخير المطلق يوازي شرًا نسبيًا في النص السردي والمتمثل في قصة الخيانة برمّتها، فالخبر أتى خادمًا لفكرة هذه الثنائية بوضوح جلي، إذ أن حيز الخيانة في السرد لم يأت إلا في سياق خدمة فكرة الخير المطلق المنتشر في فضاء السرد.

ويلاحظ انحياز كلام السارد إلى الخليفة بالكامل، فشخصيته هي الشخصية المحورية وباقي الشخصيات خادمةٌ له موظّفةٌ في إظهار ذكائه وفطنته وحكمته ورحمته برعاياه واهتمامه بهم باعتباره سلطة سياسية عليا، فالخبر موجه بالدرجة الأولى لإظهار ذكاء هذا الخليفة العباسي، وقد استطاع أن يؤثر على المتلقي بذلك ويقنعه من خلال انحياز السارد للشخصية المحورية، فهو الذي تنبه للرجل الملهوف الحزين، وهو من أمر باستدعائه، وهو الذي طرح عليه أسئلة تراتبية ذات إحالات مختلفة، وهو الذي وضع الفرضية، وهو الذي أمر بتنفيذها

بإحكام، وهو الذي حقق مع الخائن ابتداءً حتى ظهرت الحقيقة للعيان، وهو الذي رد عين المال المسروق للرجل، وهو الذي طلق منه زوجته بعد أن اشترط عليه تحكيم نفسه في شأنه بها مقابل رد ماله المسروق، وهو الذي أخبره بخبرها بعد أن طلقها منه وأنهى الوشيجة التي تربطهما.

والحقيقة أن لشخصية الخليفة أبي جعفر المنصور كاريزما مميزة من الصفات المتفردة والقيادية الحازمة فهو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، وكان من أفراد الدهر هيبة وشجاعة، ورأيا وحزمًا ودهاءً – كما تقول كتب السير – تاركًا للهو واللعب، كامل العقل بعيد الغور، حسن المشاركة في الفقه والأدب والعلم، طويلاً مهيبًا كأن عينيه لسانان ناطقان، تخالطه أبهة الملك بزيّ النساك، تقبله القلوب، وتتبعه العيون[15]، وهو أول من عني بالعلوم من ملوك العرب، وفي أيامه شرع العرب يطلبون علوم اليونان والفرس، وعُمل أول اسطرلاب في الإسلام، كان كثير الجد والتفكير وله تواقيع غاية في البلاغة.[16] ومن كانت صفاته كذلك في سير الواقع لا غرو أن تنسج عنه الأخبار بانحياز تام وثقة مطلقة كما نجدها في فضاء هذا النص.

وقد اعتمد السارد على تقنية العرض للخبر برواية وقائع هي بمنزلة الحجة، حيث احتوى عرضه على مكونات الخطاب الإقناعي الأربعة: الاستهلال (جلس الخليفة أبو جعفر المنصور في إحدى قباب بغداد، فرأى رجلا ملهوفا يجول في الطرقات، فأرسل إليه من أتاه به، فلما سأله عن حاله) والسرد (الحوار بين الخليفة والرجل مسلوب المال) والإثبات (حبكة الطيب الفريد) والاختتام (ظهور الحقائق ورد المال المسروق وتطليق المرأة من زوجها ثم إخباره بخبرها). وعلى الرغم من مظهر الخبر الاستدلالي العقلي إلا أن طريقة التقديم تشكل في حد ذاتها حجة[17] ، وبالتالي فإن طريقة السارد في عرض الوقائع أسهمت في عملية التأثير على المتلقي.

هذا وقد أضمر النص مجموعة من الحجج شبه المنطقية المتعلقة بالشخصية المحورية (أبو جعفر المنصور) ومن تلك الحجج؛ حجة السلطة التي تستخدم حظوة الشخص في دعم دعوى ما[18]وبالتالي فإن المتلقي يذعن – بلا وعي – لتلك السلطة إذ أنه يشعر بجودة ما يصدر عنها، وعلى الرغم من قوة الحجاج العقلي في النص السردي، إلا أن حجة السلطة المتمثلة في شخص الخليفة قد وهبت النص قوة إضافية وحجاجاً إقناعياً مضاعفًا.

ومن الحجاج المضمر القائم على الشخصية المحورية اعتماد الخليفة على حجة المقارنة في استنباط فرضية خيانة المرأة، فالمقارنة من وسائل الحجاج التي يلجأ إليها المتكلم عندما يواجه طرفين أو عدة أطراف لتقييمهما في ضوء هذه العلاقة[19]، وبالتالي فقد وضع احتمال خيانة المرأة نظرًا لقصر مدة زواجها مقارنةً بالزواج المديد العمر، لأن احتمال الخيانة أقرب للأول مقارنةً بالثاني، ووضع احتمال خيانتها نظرًا لكونها ثيبًا مقارنة بالبكر، لأنه الأقرب لصدور الخيانة من الحالة الأخرى، والاعتبار الثالث ذهب لكونها قد أنجبت ولدًا أو لم تنجب لأن من

أنجبت الولد يغلب عليها أن تنشغل بهم لا بمحبوبها، أما الاعتبار الرابع فقد اتجه للعمر لكون الشابة أقرب لدواعي الخيانة مقارنة بالمسنّة[20].

كما أضمر النص إحدى حجج التعارض وهي حجة الهدم الذاتي التي تعني مخالفة القول للفعل، أو التعارض بين القاعدة وشروط تلفظها أو النتائج الناجمة عنها[21]، فأول ما اتجهت الشكوك نحو الزوجة نظرًا للمخالفة بين حال البيت (لم أر نقباً ولا تسلقاً) وبين ما أخبرت به الزوجة من سرقة المال. ومن البدهي أن يطرح هذا التساؤل نفسه: هل سُرق المال حقًا؟ وهل ثمة سارق أصلاً؟ فالقاعدة تقول: بأن السارق ينبغي أن يخلف وراءه أثرًا، والمرأة تقول: بأن المال قد سُرق، وبالتالي ظهر هذا التعارض بين قول المرأة وفعل السرقة، مما وجه السرد ناحية الزوجة وافتراض خيانتها واختبار ذلك بحيلة الطيب الذي كشف أمرها بعد إقرار الخائن واعترافه.

ويتجلى **الحجاج بالعواطف/ الأهواء – الباتوس**[22] في النص السردي في أن الخبر برمته قام على سبب المشاعر والعاطفة عند الخليفة (رأى رجلاً ملهوفًا يجول في الطرقات)، والمعرفة الكلية التي بنيت فيه – الاستدلال غير المباشر – جاءت باستدعاء من هذا التعاطف، فلو لم يتعاطف الخليفة مع الرجل الملهوف لما استدعيَ الخبر من الأساس، فالخليفة رأى الرجل مهمومًا فاستدعاه واستمع منه وصدقه ووثق بكلامه ثم بُني الخبر على هذا الأساس. فالحجاج بالعاطفة أولاً قام عليه الحجاج العقلي باحتراف ومنهجية بعد ذلك، وفي هذا ملمح مهم بأن العلم يهدف أساساً إلى خدمة البشرية والإنسانية وينبغي أن يطور نفسه من أجل تلبية احتياجاتها وتخفيف معاناتها وزيادة رفاهيتها، ويجب أن يكون العلم تابعًا خادمًا للقيم والمبادئ الإنسانية ويصب في مصلحتها لا العكس.

ومن أهم المؤشرات الدالة على حجاج العواطف/ الباتوس في فضاء النص السردي قيامه على مقاصد أخلاقية نبيلة كالرحمة والحكمة والنخوة والعدل وحفظ الكرامة والستر والردع وتفريج الكربة، وبالتالي فإن نتيجة تأثير النص في المتلقي مرتبطة بالقيم السامية النابعة منه والمضمرة فيه، فالنفوس مجبولة على حب تلك القيم حتى لو لم تتمثلها لكنها من الأمور المتفق على استحسانها والإعجاب بها، ومن هنا كان النص السردي جديرًا بالتأثير في المتلقي لكونه يلتقي مع مثالياته التي يؤمن بها.

واتكاء النص السردي على (الطيب) باعتباره قرينة دالة على الرجل الخائن يستدعي (قميص) يوسف عليه السلام في القرآن الكريم باعتباره موروثا دينيا مؤثرًا مختزنًا في الوعي الجمعي، فالقميص كان دليلاً على براءة يوسف عيه السلام، بينما الطيب في النص السردي أضحى دليلاً على الخائن، كاشفًا لحقيقته، فهذه الثنائية الضدّية في موقفين متشابهين نسبيًا مما يسهم بشكل فاعل في التأثير على المتلقي ضمن عواطفه ومكوناته النفسية.

ولـ(الطيب) في النص السردي دلالة غير مباشرة تتعلق بحاسة الشم، وما تتميز به تلك الحاسة من خصائص ومزايا تختلف عن باقي الحواس والتي تتمثل في الاقتراب بين المحبوبين وأهمية (الطيب) في تلك العلاقة، وعندما نسلط الضوء على مثل هذه العلاقة غير المباشرة نعني به البحث عن تناظرات دلالية جديدة من خلال تأويل القصدية التلفظية الأولى والبحث عن علاقات بين العناصر المكونة للنص وهي علاقات غير مرئية من خلال التجلي اللغوي المباشر[23] ، كما أن نسبة الخيانة للمرأة في سياق خبر يحكي – أساسًا – ذكاء الخليفة، يتخذ أحد أشكال الذاكرة الجمعية التي تحمّل المرأة الخطيئة القديمة وتؤكد على سلبيتها وهامشيتها[24] وإن كانت تلك الدلالة مضمرة وغير مباشرة، لكنها تلتقي مع أنساق الثقافة العامة لدى المتلقي، وبالتالي فإنها تصبّ في خانة التأثير عليه من ناحية أهوائه وعواطفه.

الخاتمــة

حاولت هذه الورقة العلمية الموجزة توظيف مفاهيم الحجاج الأرسطي بأبعادها المختلفة (العقلي، الأخلاقي، العاطفي) على أحد نماذج السرد العربي القديم، وقد كشفت عن غنى هذا النص وارتفاع حظوته من النظرية الاستدلالية وفقاً لقواعد التفكير العلمية الحديثة القائمة حتى اليوم، إذ أن الحجاج العقلي المتمثل في الاستدلال المنطقي التراتبي المحكم مثّل بؤرة النص وأبان عن تطور السرد العربي ومواكبته للعلوم التطبيقية المزدهرة آنذاك.

فقد برزت مراحل التفكير العلمي الممنهجة في هذا النص بدءاً من الملاحظة والتساؤلات وانتهاءً بالنتيجة واعتمادها وما بين ذلك من خطوات علمية محكمة، الأمر الذي يشير إلى وعي العرب بها منذ وقت مبكر، وقد قدم الخبر – محل الدراسة – حجاجًا بنى معرفة كلية مقنعة وقدمها للمتلقي في ثوبٍ أدبي ماتع.

وعليه؛ فالدراسة توصي بإعادة قراءة السرد في التراث الأدبي القديم وفقاً للمفاهيم والمبادئ الحجاجية الاستدلالية، لكونها الأنسب في استكناه مكامن قوتها والأقدر على استخراج كنوزها وأسرارها.

(1) تتجه دراسة البنية الحجاجية في النصوص السردية إلى ثلاثة عناصر: الأول يتجه إلى محتوى الخطاب، والثاني يتجه إلى أخلاق الخطيب/ السارد/ الشخصية الأبرز في النص، والثالث يتجه إلى عواطف المتلقي/ السامع وأهوائه ومشاعره. فمن هذه العناصر الثلاثة تتشكل البنية الحجاجية للنص وبحسب قوتها ومصداقيتها ومناسبتها للمتلقي يمكنها إقناعه والتأثير فيه.

(2) ينظر كتابه: في بلاغة الحجاج (نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات) الجائز على جائزة الشيخ زايد عام 2018م، كنوز المعرفة، عمّان، ط1 ،1439هـ /2018م، الفصل الأول والثاني والثالث. وينظر كتابه أيضًا: محاضرات في البلاغة الجديدة، الرافدين، بيروت، ط1، 2021م، القسم الأول والثاني. وينظر كتابه أيضًا: خطاب الأخلاق والهوية في رسائل الجاحظ (مقاربة بلاغية حجاجية)، كنوز المعرفة، عمّان، ط1، 1436هـ/ 2015م، ص9 والفصل الثالث من القسم الأول والقسم الثاني، حيث وظف هذه المفاهيم في دراسة سائل الجاحظ. وينظر كتابه أيضًا: الرواية والبلاغة (نحو مقاربة بلاغية موسعة للرواية العربية) الحائز على جائزة كتارا للرواية العربية، دار كتارا للنشر، الدوحة، ط1، 2019م، الفصل الرابع حيث وظف هذه المفاهيم الحجاجية في دراسة فن الرواية.

(3) ينظر الخبر في:

– ثمرات الأوراق، تقي الدين أبوبكر بن علي بن محمد بن حجّة الحموي، تحقيق وتعليق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، 1426هـ/ 2005م، نوادر الأذكياء ص114

– أخبار الأذكياء، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي القرشي البغدادي، عناية: بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1424هـ/ 2003م، ص69

– نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، المحسن بن علي بن محمد التنوخي البصري، المكتبة الشاملة، ج7، ص277.

(4) استراتيجيات الخطاب الحجاجي المؤثر عند أرسطو تنقسم إلى ثلاثة: الأولى تتجه إلى محتوى الخطاب وما يحويه من حجج واستدلالات عقلية منطقية ويسمى في اليونانية" اللوجوس"، والثانية تعتمد على شخصية الخطيب / أبي جعفر المنصور، وما يتسم به من مصداقية أخلاقية تجعل المتلقي يثق بما يصدر عنه وتسمى باليونانية " الباتوس"، والثالثة تعتمد على مشاعر المتلقي وعواطفه وأهوائه وتسمى في اليونانية " الباتوس" ينظر: تاريخ نظريات الحجاج، فيليب بروتون وجيل جوتييه، ترجمة: محمد صالح الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ط1، 1432هـ/ 2011م، ص32

(5) ينظر: في بلاغة الحجاج (نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات)، محمد مشبال، كنوز المعرفة، عمّان ، ط1 ،1439هـ /2018م، ص87/86.

(6) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر، مادة (د ل ل – 1836)، عالم الكتب، ط1، 1429هـ/ 2008م، ص763.

(7) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، ط2، دار الفارابي، بيروت، 2007م. هامش ص9، وقد نقله عن: عمر الملا حويش: تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية، بغداد، 1972م، ص372.

(8) ينظر: الحجاج في القرآن، صولة، وقد ترجمه من الفرنسية عن معجم روبير Robert (طبعة 1977) هامش ص10/9.

(9) ينظر: ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الحمن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط13، 1435هـ/ 2014م، ص200.

(10) ينظر: ضوابط المعرفة، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص207 وما بعدها.

(11) ينظر: المرجع السابق، ص208

(12) السابق، ص210

(13) ينظر: الحجاج والتأويل، مشبال، مرجع سابق، ص48.

(14) تهتم استراتيجة الأيتوس بإيقاع التصديق من خلال السارد أو المتكلم أو الشخصية المحورية في الخطاب؛ لأن قيمة الخطاب مستمدة من قيمة صاحبه وتأثيره في المتلقين مستمد من تأثير صورته فيهم، فالمصداقية الأخلاقية تشكل شرطًا ضروريًا لقبول الحجة والثقة في الخطاب، فالمتكلم ذو أهمية بالغة في العملية الإقناعية. ينظر: بلاغة الحجاج، مشبال، مرجع سابق، ص169.

(15) ينظر: سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد أحمد عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ج7، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1402هـ/1982م، ص83. فوات الوفيات والذيل عليها، محمد شاكر كتبي، تحقيق: إحسان عباس، مج2، دار صادر، بيروت، ص216.

(16) ينظر: الأعلام، خير الدين الزركلي، مج4، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1984م، ص117.

(17) في بلاغة الحجاج، مشبال، مرجع سابق، ص108.

(18) ينظر: محاضرات في البلاغة الجديدة، مشبال، مرجع سابق، ص63. في بلاغة الحجاج، مرجع سابق، ص135.

(19) ينظر: محاضرات في البلاغة الجديدة، المرجع السابق، ص47.

(20) ومن زاوية أخرى يمكننا تسمية ذلك **حجة التحديد** التي تفيد بأن كل تحديد في سياق بلاغي هو حجة بما أنه يفرض معنى على حساب معنى آخر لأجل تهيئة المتلقي لقبول الدعوى التي نروم إخضاعه لها، فالمرأة المسنة والزواج المديد وإنجاب الأبناء والعذرية عناصر تتضافر جميعها لتحدد ما إذا كانت المرأة في هذه الأحوال يستبعد منها الجنوح للخيانة أو يحتمل صدورها منها، والعكس صحيح أيضًا.

(21) ينظر: محاضرات في البلاغة الجديدة، مشبال، مرجع سابق، ص47.

(22) يشير الباتوس إلى مجموعة الأهواء/ المشاعر/ العواطف التي يثيرها السارد في المتلقي لحمله على قبول دعواه أو وجهة نظره ينظر: محاضرات في البلاغة الجديدة، مشبال، مرجع سابق، ص105. وبالنظر إلى أهمية الباتوس في بلاغة الحجاج فإن البلاغة هي "فن توجيه الأهواء" أي أنها تشترط على الخطيب أن يكون على معرفة بسيكولوجية المتلقي وأحواله وبما يحركه ويؤثر فيه. ينظر: بلاغة الحجاج، مرجع سابق، مشبال، ص257.

(23) ينظر: مسالك المعنى دراسة في بعض أنساق الثقافة العربية، سعيد بنكراد، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 2006م، ص33.

(24) ينظر: المرجع السابق، ص36/35.